مجلة أبوليوس
المجلد 11 العدد 1 – جانفي 2024 الصفحات: 127- 139

البناء الفني للرسائل السياسية في كتاب النمر والثعلب لسهل بن هارون –دراسة أسلوبية-

The Artistic Structure of Political Messages in Sahl bin Harun's 'The Tiger and the Fox': A Stylistic Analysis

حورية نهاري*
مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية – وحدة البحث تلمسان (الجزائر)
h.nehari@crstdla.dz

تاريخ الاستلام: 2023/05/07 تاريخ القبول: 2024/01/22 تاريخ النشر: 2023/03/04

ملخص البحث:

الرسالة نوع أدبي امتلك في فترة وجيزة من ظهوره مكانة ذات أهمية بالغة بين الأنواع الأدبية المعروفة آنذاك، حيث ارتقى فن كتابة الرسائل على نحو سريع، حتى باتت الكتابات الترسلية تنافس القصائد الشعرية في تفنّن تناولها للموضوعات المختلفة، وصارت معرضاً حقيقياً للقدرات الفنية والبلاغية والبيانية العالية عند الخلفاء والولاة وكُتَّاب الدواوين،

هذا البحث يتناول موضوع سهل بن هارون مترسّلاً، من خلال تحديد موضوعات رسائله السياسية وأنواعها الأساسية، والحديث عن خصائصها الفكرية والتصويرية، وأسلوبه الفنيّ في الترسّل، وإماطة اللثام عن مكانته في الكتابة والترسّل وأثره في الأدب العربي ، ستهتم هذه الورقة البحثية برسائله السياسية التي ضمها كتابه: "النمر والثعلب" وتمثّل هذه الرسائل حواراً سياسيّاً حادّاً ،يكشف بعمق الأوضاع السياسية التي عرفها العصر العباسي، و ينقل نظرة المثقف إلى الحكم والحكام إضافة إلى قيمتها الأدبية الإبداعية.

الكلمات المفتاحية: أدب الترسل؛ الرسالة السياسية؛ سهل بن هارون، كتاب النمر والثعلب.

Abstract:

The epistle emerged as a significant literary genre within a brief period, garnering notable attention from rulers and authors alike. This study delves into the works of Sahel bin Haroun, examining the thematic essence and diverse forms of his political messages. It scrutinizes their intellectual depth, visual imagery, and stylistic nuances, unveiling the author's stance on writing and dissemination, and its impact on Arabic literature. Focused on "The Tiger and the Fox," these messages epitomize a poignant political discourse, offering profound insights into the Abbasid era's political landscape and the intellectual's perspective on governance and rulership, while also showcasing their literary ingenuity.

Keywords: Epistolary literature, political discourse, Sahel bin Harun, "The Tiger and the Fox."

* المؤلّف المراسل

مقدمة:

الرسائل فن أدبي ازدهر وانتشر في القرنين الثالث والرابع الهجريين خاصة عندما بلغت الحضارة العربية الإسلامية قمة العطاء في مختلف الميادين والمجالات، وهو فن نثري يُظْهِرُ مقدرة الكاتب وموهبته الكتابية وروعة أساليبه البيانية المنمقة القوية.

إن فن الترسل يعد من فروع النثر العربي، و قد نما بتقدم الكتابة وازدهار السياسة عند العرب، يقول حسين غالب في كتابه بيان العرب الجديد: "الترسل هو فن قائم على خطاب يوجهه شخص إلى شخص آخر، أو يوجهه مقام رسمي إلى مقام رسمي آخر"[1]، و قد تعددت أنواع الرسائل فمنها الرسائل الديوانية و "هي الصادرة عن ديوان الخليفة ، والأمير يوجهها إلى ولاته و عماله و قادة جيوشه ، بل إلى أعدائه أحيانا منذرا ومتوعدا"[2]، وهو مايعرف حاليا بالمراسلات الإدارية الرسمية، و منها الرسائل الإخوانية يقول القلقشندي عن هذا النوع من الترسل: "الإخوانيات جمع إخوانية نسبة إلى الإخوان، والمراد المكاتبة الدائرة بين الأصدقاء"[3]

يعد الخليفة معاوية بن أبي سفيان أول من أنشأ ديوان للرسائل يعنى بشؤون المكاتبات التي تصدر عن الخليفة إلى ولاته و قادة جنده و ملوك الدول الأخرى، وقد كان الخليفة في بداية الأمر هو الذي يُملي الرسائل على كاتبه، ثم بمرور الزمن أخذ الكاتب يستقل بكتابة الرسائل، ثم يعرضها على الخليفة وكان أسلوب الرسائل آنذاك تغْلبُ عليه البساطة والوضوح[4]، و لقد عرف أدب الترسل تطورا و ازدهارا كبيرا في عهد عبد الحميد الكاتب فقد عُرِف عبد الحميد بالبراعة في فن الترسل حتى غدت مكاتباته مضرب المثل في الجودة والإتقان، حتى قيل (بدئت الكتابة بعبد الحميد) [5] ، وصولا إلى العصر العباسي حيث أن الكتّاب (كتاب الرسائل) في العصر العباسي عموماً، كان لهم فضلٌ كبير في خدمة الثقافة العربية؛ إذ كان أسلوبهم الكتابي قائماً على جلال التفكير وجمال التعبير معاً، فقد أنشأ هؤلاء لغة ذات طابع مزدوج: لغة إدارية؛ مع ما تقتضيه هذه اللغة من تعبيرٍ عن أوامر الحاكم ومقاصده، ولكنها في الوقت نفسه لغة فنية، بهذا استطاع مجموعة من كتاب الدواوين أن يؤسسوا مدرسة بيانية خاصة بهم لها قوانينها وشروطها الصارمة، فالكتابة للملوك تتطلب قواعد سياسية يجب على الكاتب أن يلتزم بها مع وجود مساحة مفتوحة للإبداع والتميز، ويؤكد هذا الكلام ما ذهب إليه ابن خلدون في مقدمته متحدثًا عما يجب أن يكون عليه كاتب الرسائل من أخلاق وصفات فنجده يقول :" واعلم أن صاحب هذه الخطة لابد أن يُتخيَّر من أرفع طبقات الناس وأهل المروءة والحشمة منهم، وزيادة العلم وعارضة البلاغة، فإنه معرض للنظر في أصول العلم لما يعرض في مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك، مع ما تدعو إليه عِشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل، مع ما يضطر إليه في الترسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها"[(6)] وقد تعدّدت أغراض الرّسائل في هذا العصر، فخرجت للمفاخرة والمحاورة والمفاضلة والمساجلة، والمخارجة، وغير ذلك.

1-الرسالة السياسية في العصر العباسي:

أصبحت الرسائل الديوانية في أواخر العصر العباسي وثائق تاريخية سياسية لها أهميتها البالغة في تصوير الأحداث و الكشف عن أدقّ الأمور التي ألمّت بالمجتمع الإسلامي و رسم ملامحه المختلفة. فكانت الرسائل الوسيلة المهمة التي لجأت إليها كل الأطراف السياسية المتخاصمة للتعبير عن نوازعهم و دعم

حججهم وإبطال مزاعم خصومهم و الكشف عن مساوئهم، حيث قيل أن الكتابة في دواوين الدولة قديماً هي (أشرف مراتب الدّنيا بعد الخلافة)؛ نظراً للمنزلة العاليّة، التي تبوّأها الكتّاب في إدارة سياسة الدولة وقضايا الحكم, وكانت الكتابة، في كثيرٍ من الأحيان طريقا للوصول إلى سُدّة الوزارة، وسبيلاً إلى بلوغ هذه المرتبة العالية، غير أن الاصطلاء بنار السياسة وويلاتها كان نصيب كثيرٍ منهم.[7]

2-سهل بن هارون مترسلا :

هو سهل بن هارون بن راهبون ، فارسي الأصل، اختلف الرواة في مسقط رأسه فقيل أنه ولد في دستميسان بين البصرة و واسط، وقيل أنه من أهل نيسابور حوالي سنة ١٤٠ هـ أو بعدها بقليل، غادر مسقط رأسه إلى البصرة فنهل من ينابيع العلم فيها "وخاصة علم الكلام وما نقل عن الأجانب من مختلف الترجمات فارسية و يونانية وهندية"[(8)] ثم غادرها إلى بغداد، فعمل كاتبًا بين يدي يحيى البرمكي، عندما أسس الرشيد دار الحكمة عين بها فترجم كتبا من الآداب الأجنبية إذ كان أحد النقلة النابهين من لسانه الفارسي إلى العربية، وفي عهد المأمون صار قيمًا وخازنًا على دار الحكمة، وحولها إلى ما يشبه أكاديمية ضخمة، وكان يلزم المأمون في مجالسه و ندواته التي كان يعقدها لكبار العلماء و المتكلمين، وظلّ فيها إلى أن توّفي عام٢١٥ هـ.[(9)]

اشتهر سهل بن هارون في زمانه بالحكمة والبلاغة حتى سمي بزرجمهر العرب ذكر ابن النديم أنَّه:" كان حكيمًا فصيحًا شاعرًا، فارسي الأصل شعوبي المذهب، شديد العصبية على العرب، وله في ذلك كتب كثيرة ورسائل"[(10)] وكان الجاحظ يفضله ويصف براعته وفصاحته ويحكي عنه في كتبه قال :"كان سهل سهلا في نفسه عتيق الوجه حسن الشارة بعيدا عن الفدامة تقضى له بالحكمة قبل الخبرة و برقة الذهن قبل المخاطبة وبدقة المذهب قبل الامتحان و بالنبل قبل التكشف"[(11)] وقد صدر الجاحظ كتابه البخلاء برسالة لسهل في البخل إلاّ أنها كانت دليل إدانة لصاحبها، إذْ عُدّت شاهداً على بُخله من ناحية، وعلى شعوبيّته ضد العرب من ناحية أخرى.

وله مؤلفاتٌ كثيرة ذكِرَت في بطون الكتب القديمة والحديثة على السّواء والعثور على نصوص من بعضها يعد خير شاهد على مقدرة صاحبها الأدبيّة وأهم هذه المؤلفات:ثعلة وعفراء (عفرة)، والنمر والثعلب، والإخوان، والمسائل، والمخزوميّ والهذلية، والوامق والعذراء، وندود وودود ولدود، والضّربين، والغزالين، وأدب أسل بن أسل، وكتاب إلى عيسى بن أبان في القضاء، وكتاب في سيرة المأمون، وديوان رسائل، وكتاب أسانوس في اتخاذ الإخوان، وكتاب شجرة العقل، وكتاب الَفرَسْ"[(12)].

وممّا يؤسف له أن جُلَّ رسائله سقطت من يد الزمن، ولم يصل إلينا منها إلاّ النزر اليسير، وأهمها رسالته في البخل –كما اصطلح على تسميتها-و رسالة في تفضيل الزجاج على الذهب ورسالتان تبادلهما مع صديق له وثمان رسائل ضمّها كتابه "النمر والثعلب"، وهي من نوع الرسائل الديوانية.

و لا يفوتنا الإشارة إلى أهمية بعض المجالس العامة لكتاب الرسائل و أثرها على الحياة الثقافية العامة كمجلس الكاتب سهل بن هارون الذي نهل من معين الثقافة العربية و استنار عقله بما اقتبسه من نور

معارفها ،و تلك المجالس كانت تعقد في البصرة مدينة العلم و المعرفة ،و برع في ترجمة الكتب الأجنبية من هندية و فارسية و يونانية، ولبلاغته و حكمته أيضا جعله الرشيد على دار الحكمة ، وفي عهد المأمون كان ابن هارون يحضر مجالس الخليفة واللقاءات التي كانت تنظم لكبار الحكماء و العلماء والمتكلمين و بقي مشرفا على دار الحكمة حتى وفاته 215هـ"[13]

وتجدر الإشارة إلى لغزين يحيطان بحياة سهل بن هارون ويبدو أن لا أحد من دارسيه توصل إلى كشف حقيقتهما و رفع الستار عنهما، أولهما :ما السبب الحقيقي وراء نجاة سهل بن هارون من تنكيل هارون الرشيد به وهو صديق مقرب وولي نعمة البرامكة ؟ لقد كان في بداية عهده ببغداد كاتباً بين يدي يحيى البرمكي، و هو الذي قربه من الرشيد الذي أبقى على حياته بعد نكبة البرامكة ولم يفتك به؛ "لأن الحاجة إليه قرَّبت منه وأبقت عليه "[14]–على حدِّ تعبير الرشيد نفسه-فهل يمكن أن يكون هذا سببا كافيا في زمن عرف أدباء نوابغ كانوا يتنافسون على بلوغ المناصب المهمة في الدولة ؟

ثانيهما :كيف ضاعت منجزاته الأدبية ؟ لم تذكر المراجع كيفية ضياع أعمال سهل بن هارون بهذه الطريقة الغريبة و كأنه تم التخلص منها بسابق إصرار فلا يمكن أن يكون ذلك مجرد صدفة لأن سهل بن هارون لم يكن شخصية مغمورة ولا حتى بسيطة، إنه القيم على دار الحكمة في أهم مرحلتين من الدولة العباسية -عهد الرشيد والمأمون- و الكل يعرف المكانة و الشهرة التي عرف بها الأدباء و العلماء في هذه المرحلة .لكن أهم سؤال يجب أن يطرح هو : لماذا ضاعت ؟

3-رسائل سهل بن هارون السياسية :

سهل من الرّجال القلائل ألّذين جمعوا بين العلم والأدب والسّياسة، أبرز قدرته الهائلة في هذه المجالات الثلاثة من خلال كتابه الموسوم "النمر و الثعلب " الذي ينتمي إليه أدب قصص الحيوان عارض من خلاله كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع، وقصة النمر و الثعلب "ذات طابع سياسي وتعليمي، تدخل في علم تدبير الملوك، على حد تعبير القدماء، و قد كتبها بلغة رفيعة المستوى، لأنها موجهة إلى طبقة الصفوة من الأدباء و كتاب الدواوين لعهده"[15]لم يتوسع سهل في بيان مقصده من الكتاب كما توسع ابن المقفع في ذلك ،إنما اكتفى بالقول :"أما بعد أيدك الله بتوفيقه و عصمك بتسديده فإني رأيت أن أصنع لك كتابا في الأدب و البلاغة و الترسل و الحروب و الحيل و الأمثال و العالم الجاهل، و أن أشرب ذلك بشيء من المواعظ و ضروب من الحكم، و قد وضعت من ذلك كتابا مختصرا موعيا شافيا، و جعلته أصلا للعالم الأديب و العاقل الأريب، مما أمكنني حفظه، و اطرد لي تأليفه"[16] تقوم القصة على ثلاثية مختارة بعناية في دلالاتها الرمزية و هم النمر والذئب و الثعلب، فالنمر يرمز إلى الخليفة الشرعيّ، والذئب يُمثّل كلّ والٍ متمرّدٍ جاحد، خارج على طاعة هذا الخليفة، ويمثل الثعلب الوزير الكاتب الناصح والمشير. اشتملت القصة على ثمان رسائل تم تبادلها بين النمر و الذئب وهي رسائل في الذروة من البلاغة والبيان الرفيع، وموضوعها سياسيّ صِرْف؛ إذ إنّ مضمونها يمثّل حواراً سياسيّاً حادّاً بين النمر (الملك) والذئب (الوالي المتمرّد)، كلّ يُدلي بحجَّته، وتتفرّع في معانيها وأغراضها إلى رسائل في التوبيخ والتقريع، و التهديد والإنذار، والاعتذار والاستعطاف ، وهي لا تمتلك

قيمة تاريخية كالرسائل السياسية الحقّة، بقدر ما تتمتع بقيمة أدبية فنية عالية ، و إن كانت تنقل صورة صادقة و خفية عن الحكم و السلطان و تدبير أمور الدولة، إلا أن هذه الرسائل أقرب إلى صِفة الأدبية منها إلى الديوانية أو الرسمية؛ لأنّه كتبها اختيارا وليس اضطرارا بتكليفٍ من السلطان، ومع ذلك فهي صدى لما كان يكتب في الدواوين ف"القص على لسان الحيوان سبيل مأمون يسلكه حكماء السياسة لا بل نقادها و أرباب الإصلاح الاجتماعي والأخلاقي وأصحاب النظرة المثالية المتسامية فينفسون به عما تجيش به صدورهم"[17]

4-الخصائص الفنية لرسائل سهل بن هارون السياسية:

اتبع سهل بن هارون في رسائله منهجية موحدة في عرض عناصر رسائله فلم يحد عنها إلا لماما، وكأنه يؤسس لطريقة ثابتة في كتابة الرسائل الإدارية وهي .

4-1-الاستفتاح :

يبدأ سهل رسائله بالبسملة ووجدنا البسملة تطرد اطرادًا لافتًا في رسائله الديوانية التي تعالج أمورًا ذات طابع رسميّ وكانت الصلاة على النبيّ الكريم أسلوبًا متبعًا في غالبية الرسائل الديوانية، والفضل في ذلك يعود لهارون الرّشيد، الذي أمر كُتابه بإتباع هذا الأسلوب في رسائلهم الديوانيّة[18] مع اختلاف العبارات في الصلاة على النبي –صلى الله عليه و سلم أما سهل فالتزم بعبارة :" صّلى الله على سيّدنا محمدٍ النبيّ الكريم"، كثير من الكّتاب في هذا العصر مالوا إلى الّتخّلي عن الاستفتاح بالسّلام في رسائلهم، والكاتب في رسائله لم يذكر السّلام، لأن المقام لم يكن يسمح بذلك لأن جل رسائله كانت تقوم على خطاب التهديد و الوعيد والحرب فلم يكن مناسبا أن يستهلها بالسلام لأن ذلك كان ليكون مخالفا لمضمونها مما قد يخلق حالة من الالتباس بين النص و مقصده، و لم تذكر إلا مرة واحدة في الرسالة الأخيرة الموجهة من الملك إلى الذئب فقال :" سلامٌ على من اتبع الهدى" حيث أن السلام لم يكن موجها إلى المرسل إليه (الذئب) لأنه كان قد أعلن الحرب عليه بل هو موجه بطريقة غاية في الذكاء إلى باقي الولاة حاملا إليهم قانونا مهما من قوانين الحكم حيث لا سلام بين الملك وولاته إلا لمن اتبع فيهم الهدى، أو بعبارة أكثر صراحة و مباشرة من اتبع أوامر الملك و رضخ لسيطرته أما من سولت له نفسه أن يخرج عن طاعته فمصيره هو مصير الذئب نفسه الحرب ثم القتل.

4-2-المقدمة :

تخّلت المراسلات السياسيّة عن الّتحيّة، وتركت التحميد أيضًا، فلم يذكر سهل في رسائله تحية ولا تحميدا، لأّنه مال إلى التخّلي عن بعض الشكليات، ويلاحظ أنّ تركه للتحميد في رسائله، نابعٌ من موضوعها العنيف والقاسي، أما ذكر اسم المرسل إليه فلم يذكر إلا ثلاث مرات :

- الرسالة الّثالثة من الملك إلى الذئب: يا غرور.
- الرّسالة السّابعة من الملك إلى الذئب :يا ابن الّلكيعة وعبد العصا.

- الرّسالة الأخيرة من الملك إلى الذئب: من ملك النّمور المظفر بن منصور إلى الطاغية الشبيه باسمه مكابر بن مساور.

لا يذكر سهل اسم المرسل إليه عندما تكون موجهة إلى الذئب بل يكتفي بمناداته بألقاب غاية في القبح والفظاظة بغية الحط من قدره و إنكار أهميته و دنو منزلته، و اختار من الصفات ما فيه إشارة إلى سبب تمرده على الملك (ياغرور) و ما فيه سب له و تذكير بأصله الوضيع الذي لا يسمح له بالتعالي على ولي نعمته (يا ابن اللّكيعة وعبد العصا) و ما فيه وعيد مما ينتظر كل من طغى و ظلم من نهاية مأساوية (الطاغية) وكان سهل ذكيا في اختيار الأسماء حيث سمى الذئب (مكابر بن مساور) و المكابر من" تَكَبَّر واستكْبَر وتَكابَر وقيل تَكَبَّرَ من الكِبْر وتَكابَر من السِّنّ والتكَبُّر والاستِكبار التَّعظّم"[19] ومساور من "ساوَرَهُ مُساوَرَةٌ وسِوَاراً واثبه"[20] ، وذكر المرسل مرة واحدة في الرسالة الأخيرة (ملك النّمور المظفر بن منصور) بإيراد كنية المرسل إليه و رتبته حفظا لشرف قدره و علو منزلته ألحق سهل صفتي الظفر و النصر باسم الملك فسهل في هذه القصة،" لا يخالف الخليفة الشرعي، أو ينتقص من قَدره، بل هو حريص على السمع والطاعة، متأثّرا بوجهة نظر قومه الفُرس إلى الملوك، في أنّهم أصحاب حقٍّ إلهي في الحكم، وأن طاعتهم واجبة؛ إذ تؤكد أقاصيص الشاهنامة اعتقاد الإيرانيين الراسخ في عدم إمكان قيام دولتهم، وصلاح أمرهم، بغير الالتفاف حول ملك، واستنكارهم الخروج عن طاعة الملوك الشرعيين، وتوّقعهم سوء المصير للخارج عليه "[21]

أما الدعاء فهو كثير في مقدمة الرسائل الديوانية ولذلك نرى ابن الأثير يضع كتاباً باسم (الأدعية المئة المختارة)حتى يرجع إليه كاتب ديوان الإنشاء، فينتقي من هذا الكتاب الأدعية التي تتناسب مع طبيعة المخاطَب إن كان سلطاناً أو أميراً أو ملكاً أو غير ذلك[22]، خلت رسائل سهل من الأدعية المطولة للملك لأن النمر كان عاصيا له خارجا عن ولايته ومع ذلك فقد وجد دعائين مختصرين موجهين إلى الملك وهما -أمتع الله به – حفظه الله– لجأ إليهما الملك للتخفيف من حدة غضب الملك.

4-3-الختام:

اختتم سهل جل رسائله بالسلام إلا الرسالة السادسة التي أعلن فيها الذئب الثورة على الملك و اختتمها بقوله " وإلا فإّني بما أدنت به أدين"

4-4-الحجم :

تختلف الرسائل الديوانية في الطول والقصر من الناحية الشكلية، وذلك باختلاف الموضوع ، فرسائل (البشرى والتهاني والفتوح والتقليد) تتسم بالطول ؛ لأنها تحتاج إلى شيء من التفصيل ،أما فيما يتعلّق بالتقاليد ؛ أي تعيين موظف أو مستخدم ، فإنها تطول , فيعمد الكاتب إلى المبالغة في الإطراء أو الثناء على هذا المعين في مهمة ما أو في وظيفة ما وهذا الإطراء والمبالغة ؛ لبيان أهمية هذا العمل المناط بهذا المُعين ؛ لذلك يُكثر من الثناء والإطراء أما فيما يتعلق بكتب التهديد والوعيد ، فإنها تتسم بالقصر والإيجاز لأنه يضع

يده على الظاهرة ويشرحها ثُمَّ بعد ذلك يأمر بمحاربتها , فهو لا يحتاج إلى مقدمة ولا إلى غير ذلك حيث يدخل في الموضوع مباشرةً[23] و رسائل سهل اتسمت بالقصر المناسب للأفكار المراد نقلها و لم توجد إلا رسالة واحدة موجزة تشبه في صياغتها نظام التوقيعات و هي الرسالة التي وضع فيها الملك الذئب في حالة اختيار بين الحرب و السلم .

5. الخصائص اللغوية لرسائل سهل بن هارون السياسية:

5-1-المفردات:

تتميز المفردات المستعملة في رسائله بالقوة والجزالة، فقد اختار الكاتب ألفاظا تتناسب مع موضوعها القاسي، وامتلأت عباراته بكلمات التهديد والوعيد، ويبدو أن الكاتب يختار مفرداته بعناية فائقة، فقد عرف بالحكمة و المنطق و"المنطق لا يتطلّب الدقة والوضوح في التفكير فحسب، بل يتطلّب الدّقة في استعمال الألفاظ والتراكيب اللغوية أيضاً"[24]. فامتاز بدقّة اختياره لألفاظه، والتجويد فيها، فلم يستخدم الحُوشي الغريب، أو السّاقط السّوقي، أو الكلمات المولدة بل اللفظ العذب، اللّين السّهل، السائغ السَّلس حيناً، والجزل القويّ حيناً آخر، وقد اشتملت على بعض الكلمات الصعبة، التي تحتاج إلى معجم قديم لبيان معناها، ولا يستطيع أيّ دارس فهمها بسهولة، ، أراد بها إظهار مقدرته في الكتابة، وبيان ثقافته اللغوية والمعجمية، نذكر منها في رسالته الأولى :أحجى، الأشر، الطرّ، ربق، رتيمًا ، وفي الّثانية :تبسل ، وفي الرّابعة :دجمة ، الشجا، يقعقع، ومن السّادسة: غمط ،ومن السّابعة :الّلكيعة، تنكل، الّتمّقط، الواءلت، السّارد ، وأمّا في الأخيرة، :سلع، وصاب، الّليب، إبلاسًا، العطن.

5-2-الاقتباس:

مّا يلفت النظر حقّاً، في أسلوب سهل في الترسّل، كثرة التضمين والاقتباس، فجُلُّ رسائله تحوي آية قرآنية، أو مَثَلاً أو بيتَ شعر، أو حديثاً نبويًّا، أو قولاً مأثوراً. وهذه الاقتباسات إنمّا تؤكّد ثقافته الواسعة في ميدان التراث العربي، كما تؤكّد قدرته على توظيفها في سياقها الدلالي الدقيق، من أمثلة استشهاده بالآيات القرآنية قول الله عز وجل: (وسيعلمُ الذين ظلموا أيَّ مُنْقَلَبٍ ينقلبون)الآية 227 من سورة الشعراء، و"إذا ضُمِّنَتِ الآيات في أماكنها اللائقة بها، ومواضعها المناسبة لها، فلا شُبْهة فيما يصيرُ للكلام من الفخامة والجزالة والرونق وأيضاً فإنّ الآية الواحدة تقوم في بلوغ الغرض وتوفية المقاصد، مالا تقوم به الكتب المطوّلة، والأدلّة القاطعة"[25] استحوذ على فؤاد سهل بن هارون وملك عليه لبّه وأخذ بمجامع عقله وقلبه جميعاً؛ فإذا هو يستلهم من القرآن الكريم مفرداته وعباراته، ومعانيه وأمثاله، ويضمّنها أسلوبه. وقلّما نجد رسالة، تخلو من عبارة قرآنية أو مفردة.

أما اعتماد الشعر في الرسائل، والاستشهاد به، فظاهرة قديمة عُرفت من قبل؛ إذْ كانت الرسائل تُحلّى بالأشعار، لما يتميز به الشعر من إثارة المشاعر، وتأجيج العواطف، و من أمثلة ذلك في رسائل سهل بن هارون :

قال الشاعر:

أخو خمسين مجتمعٌ أشدّي ونجدٌ في مداورة الشؤون,

قال الشاعر:

تبدو كواكبه والشمس طالعةٌ لا النور نورٌ ولا الظلام إظلام

ومن الأمثلة على تضمين الأمثال في رسائل سهل، قوله: وما يُقَعْقَعُ لمثلي بالشِّنَان، وإنّي لألوى بعيد المُسْتَمَرّ، فأنا بين العصا ولِحَائها، من استرعى الذئب ظلم....

ويبدو سهل شديد الإعجاب ببلاغة الحجاج بن يوسف الثقفي، ولوعاً بخطبه، إذ نجد أكثر من عبارة يستلهمها منه، كقوله: ".... فنكث كِنانته ليسبرها فَعَجَمَ سهامها عوداً عوداً، فنزع بِقدْحٍ منها.." . وهنا يستمدّ قول الحجّاج في خطبته المعروفة بالكوفة، حين قال: "..... وإنّ أميرَ المؤمنين نَثَرَ كِنانته بين يديه، فَعَجَمَ عِيدانها فوجدني أمرَّها عُوداً، وأصلبَها مَكْسِراً، فرماكم بي"[26]

6- الخصائص البلاغية لرسائل سهل بن هارون السياسية:

6-1-المحسنات البديعية :

6-1-1-السجع : يتسم أسلوب سهل بصورة عامة بالتوازن في العبارة والميل إلى سجع فواصل الكلام والاهتمام باعتدال أبنية الكلمات دون تكلّف، أمّا الأسلوب الذي اعتمده في رسائله، فهو الأسلوب المتوازن أو المزدوج، وأحياناً الأسلوب المسجّع. والأسلوب المتوازن يقوم على تقسيم العبارات إلى مقاطع متوازنة، ومعادلة الألفاظ بعضها مع بعض، لتعطي إيقاعاً موسيقيّاً، من خلال التشابه في الجرس الصوتي؛ إذ تزدوج أكثر من جملة أو عبارة في تنسيقٍ مُنتظم، وهو شبيه بالسّجع إلاّ أنّه لا يتقيّد بالتقفية، وقد يُسمّى لدى البلاغيين العرب بالسّجع المتوازن، أو السجع العاطل، أو الازدواج، أو الموازنة، لقد "رفع القرآن الكريم النثر المسجوع إلى مرتبة معلومة من التقديس الديني منذ بلغ به إلى درجة الإعجاز البلاغي و كان لذلك من الأثر أن كاد الناس يتجنبون استعمال السجع تماما في الشؤون الدينية طوال القرنين الأولين من تاريخ الإسلام...أما أوائل السجع في الرسائل السياسية فإن أقدم نموذج بقي لنا من ذلك هو وصية أبي الطيب طاهر بن الحسين مؤسس الدولة الطاهرية المتوفي سنة 207هـ وكان قد كتبها لابنه عبد الله سنة 206هـ عندما جعله واليا على ديار ربيعة "[27]

واستخدام السَّجْع في الرسائل السياسية خاصّة، ويبدو "من أن البرامكة أشاعوا في كتاب دواوينهم ذوق التسجيع، وإن لم يطّرد في جميع رسائلهم وآثارهم، ولكنه على كل حال أخذ يشيع في كتاباتهم"[28] و يرجع أغلب الدارسين أن سبب شيوع السجع تأثر العرب بالثقافات الأجنبية و خاصة الفارسية حيث ان الفرس الذين يجيدون العربية "أحدثوا آثارا واسعة في الشعر و النثر فجددوا في المعاني و الخيالات والأغراض و طرق الأداء، و بعد أن كان الأدب في عهد بني أمية عربيا خالصا و لم يكن للفرس إلا مدارسته و حفظه وروايته، أصبح في عهد بني العباس يزدان بأحلى و أروع ما في أدب الفرس من معان و أخيلة فتعددت الأغراض و اتسع مجال التفكير و الخيال و ظهر التأنق في التعبير مع المحافظة على فصاحة العربية"[29] التزم سهلٌ السجع في أدبه عامّة وفي كثير من رسائله لكن لا يصح الحكم بأن الزخرف الفني جاء عن طريق الفرس و إنما هو طابع أصيل في اللغة العربية تطور مع الزمن أخذ لونا بعد لون و انتقل من حال إلى حال و عن كان هذا لا يمنع أن تكون صلات العرب بالفرس زادت في قوة هذا التطور ومن أمثلة السجع في رسائله :(فإنّك لم تَمْرِ بقتل وثاب صَوْبَ سحاب، ولا استَدْرَرْتَ به عذب شراب، بل مَرَيْتَ به سَوْطَ عذاب، وكأسَ سَلَعٍ وَصَاب، لو قد رأيت حَلَقَ الحديد، مضاعف التشديد، وخوافق البنود، محفوفةً بالجنود، وبوارق السيوف، تضحك إلى الزحوف، وتفترّ عن الحتوف، والقنا يتحطّم، واليَلَبَ يتهشّم، والأسنّةَ تَرْعُف، والقلوب تَرْجُف، والفرائص ترعُد، والسواعد تخضد، والسهام تتفلّق، والرِّقاب تتعلّق، إذاً لاستبدلت بفرحك تَرَحاً، وبسرورك بَرَحاً، وباغتباطك ندامة، وبتفريطك ملامة"

وقد امتاز سَجْعُه بقصر ألفاظه وتعادلها؛ فهو –في الغالب –مؤلّف من لفظتين لفظتين، وهو أحسن أنواع السَّجْع؛ لقرب الفواصل المسجوعة من سمع السامع، وأوعرها مذهباً، وأبعدها متناولاً، وأخفّها على القلب، وألذّها على الأُذُن، ولا يقدر عليه إلاّ الفحولُ الأفذاذ، ولا يجيء إلا نادراً، كما يرى ابن الأثير (ت 637هـ)[30]

1-2-6-الترادف : يقترن بأسلوب سهل عنصرُ الترادف الذي يَنِمُّ على حصيلة لغوية نادرة، وقدرة فائقة على استدعاء المعاني، دون تكلّفٍ أو تعمّد ، فضلاً عمّا يضفيه من إيقاعٍ صوتي ، وإلمامٍ بجزئيات الصورة، لتكون أوقعَ في الذهن.

1-3-6-الازدواج : (فاقتعدت الأشر، وامتطيت البطر) (فأنت متسكع في جهالتك، مبادر في ضلالتك) (وتلافيت ما فرط من زللك، وعفيت على سوء أمرك) (أغذوها بماء الشكر، وأنمّيها بجميل الّذكر) (أسهرني وعيده، وأقلقني تهديده) (وأجزعني توّليه،وأوقفني تجّنيه) شدّد أبو هلال العسكريّ على الازدواج، وعدّه فنًّا ظاهرًا في كلام من لا يلتزمون بالسجع من الكّتاب) وقال" :لا يحسن منثور الكلام ولا يحلو حتى يكون مزدوجًا"[31]

1-4-6-الجناس : (زادني جناحه، وكنفني رجاحه)،(صريع سطوته، عتيق عفوته)،(ومن لم تشكره على بلائه، لم تجزه بآلائه) (كأّنك لم تر أولي العناد الظاهر والعزّ القاهر)

1-5-6-الطباق : لقد أكثر الكاتب من الطباق في رسائله الديوانية؛ على اعتبار أن المقام يتلاءم وهذا المحسن، فرسائله جميعها تقوم على الموازنة بين الطاعة وأهميتها لصاحبها، وبين العصيان ومساوئه للعاصي، وما يترتب

على عصيانه، فناسب هذا الأسلوب البديعي تلك الموازنة ، وقد برع الكاتب في جعل الذئب يقف على حقيقة الأمر، ليرتجع عن عصيانه، ويظهر ولاءه للملك ومن أمثلة الطباق في رسائله الدّيوانية قوله :نعمة ≠فاقة/ الكرامة ≠الهوان /نعمة ≠نقمة /رشدك ≠زللك /غمرة ≠ هوّة /حاذرها≠ عاثرها /سطوته≠ عفوته/ الرّحمة≠النّقمة /قدّم≠ أخر /انتشار≠ انقطاع/صدع≠ شمل /تقدّم ≠تؤخر /السلم ≠الحرب /السّلامة≠ النّدامة /مغترًّا ≠آمنًا /الهوان≠ القوّة/مصارع≠ نوازل /الدّنيا ≠الآخرة /أوّله ≠آخره /تفتر≠ تضحك /اغتباطك≠ تفريطك /فرحك≠ ترحًا /طمأنينة≠ أنحاسًا /نطق≠ صمت /سعة≠ ضيق /عز≠ ضيم .

6-6-1-المشاكلة: وهي من المحسنات آلتي وظفها سهل في رسائله الدّيوانية، وإن استخدمها بقّلة، ولم يكثر منها، " وهي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته"[32]، ومنها هذا اللون، نحو :(القرن إلى القرن يثور)،(لا النّور نور، ولا الظلام إظلام)

7-1-المضمون : يصور سهل من خلال الرسائل المتبادلة بين النمر و الذئب خروج الولاة واستبدادهم بأمور ولاياتهم، بعد أن تقوى شوكُتهم، وتشتد عريكُتهم، محاولين الانفصال عن سلطان الخليفة الشرعي وهو في أثناء حديثه يبثُّ مواعظه ووصاياه وأفكاره السياسية والأخلاقية بطريقة رمزية مؤكدا على فكرة القوة و النصر للملك و الخزي و الموت للخائن رافضا حركة الانقلاب على الملك، و إن كان رسائله تجمعها وحدة الموضوع إلا أن أغراض كتابتها اختلفت من رسالة إلى أخرى.

- الرّسالة الأولى من الملك إلى الذئب :النكران و الوعيد و التنبيه والإرشاد.
- الرسالة الّثانية من الّذئب إلى الملك: التودد و الاستعطاف.
- الرسالة الّثالثة من الملك إلى الذئب: الترغيب والترهيب.
- الرّسالة الرابعة من الّذئب إلى الملك : الندية –تذكير الملك أفضال الذئب عليه-
- الرسالة الخامسة من الملك إلى الذئب:فصل الخطاب .
- الرسالة السّادسة من الذئب إلى الملك: إعلان الثورة ضد الملك.
- الرّسالة السّابعة من الملك إلى الذئب : بالتهديد والوعيد.
- الرّسالة الأخيرة من الملك إلى الذئب: تثبيط عزيمة الذئب.

حمل سهل رسائل الملك لهجة الوعيد و الترهيب دلالة على القوة و السيطرة على زمام أمور الحكم مع ظهور بين الحين و الآخر إمكانية العفو في حال رضوخ الذئب و عودته عما يزعم القيام به " وقصد من ذلك أن يبيّن لنا صفات الخلفاء العباسيين، وحبّهم للسّلام، وسعة صدرهم، وقد نمت لديه هذه المعرفة لاّتصاله الطويل بهم،

وعمله لديهم، فكان التودد لهم واضحًا في كتاباته ،فكان حريصًا كل الحرص على عدم إغضابهم، لأنّ غضب الملوك والخلفاء –كما رأينا – أمر مرعب لصاحبه"[33]

بينما تناقضت خطابات الذئب فقد ابتدأ خطابه متوددا للملك ثم ندا له ثم مهددا إياه ثم تم إسكات صوته بعد أن انتصر على الملك في المعركة الأولى .

2-7-الحجاج : كان سهل بن هارون ذا طابع جدلي لأنه كان صاحب عقلية جدلية, وقد ساعده هذا على أن يعطي معانيه وأفكاره, طابع الأقيسة المنطقية فكان لا يدع فكرة دون أن يدعمها بالدليل والبرهان وأيّاً ما كان، فإنّ سهلاً في رسالته هذه "يُرينا تطوّر العقل في العصر العباسي ومدى ما أصابه من رُقيّ ومن نموٍ ومن ثراء ومن قدرة على الحِجَاج وبسط الأدلّة، حتى ليتحوّل الكاتب بإزاء بعض الموضوعات إلى ما يشبه مناظراً جَدِلاً، لا يزال يوردُ من الحجج والأدلّة المنطقية ما يحاول به أن يُفْحِمَ خصمه ويقهره"[34]

الخاتمة:

-إن رسائل الكتّاب السياسية هي لسان حال الدولة والمعبّر عن موقف السلطة من قضايا العصر. وتعد وثائق تاريخية مهمة لمن أراد دراسة الحياة السياسية والاجتماعية في تلك العصور، أضف إلى ذلك قيمتها الفنية والأدبية في تاريخ النثر العربي.

- أدت دوراً كبيراً في الدفاع عن شرعية الحكم العباسي، لهذا عني الخلفاء بالترسل الديواني، فقد عمل الكتاب المترسلين على تلميع صورة الحاكم من خلال الأدب، حيلة سياسية تفوق الخلفاء العباسيين في استغلالها للتأثير في لاوعي المحكومين، و ربما هذا ما أنقذ سهل بن هارون من التنكيل به في نكبة البرامكة الذي كان واحدا منهم بطريقة أو أخرى ، لكن بما أنه عين الحكم المبصرة و لسانه الناطق فقد أبقت الحاجة إليه كما عبر عن ذلك هارون الرشيد، و تجدر الإشارة إلى أن مجال الترسل الديواني حقل ملغوم فمن كان من بطانة السلطان نال مرتبة الوزير و من خرج عن طاعته اصطلى بنيران العصيان.

- اتبع سهل بن هارون نسقا محددا في البناء الشكلي لرسائله، و إن خالف في بعض المواضع نهجه فلغاية في نفسه يعيها و يقصدها، أما من حيث المضمون فقد تميزت رسائله بفقد ارتبط جمالُ التصوير بجمال التفكير، وطرافة المعاني بطرافة الصور؛ فتتحقّق الإثارة والمتعة الجمالية

الهوامش والإحالات:

[1] -حسين غالب، 1971، بيان العرب الجديد، دار الكتاب اللبناني، الطبعة 1 ، بيروت، ص181.

[2]- عبد العزيز عتيق، 1972، في النقد الأدبي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ،الطبعة 2، بيروت ، ص223.

[3] - أبو العباس القلقشندي، 1922، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب المصرية، ج8 ، القاهرة، ص126 .

[4]- بوصوري ناصر، فن الترسل في العهد الرستمي مقاربة أسلوبية، رسالة ماجستير، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة ، ص 25 .

[5]- المرجع السابق، ص25.

[6]– عبد الرحمن ابن خلدون، 2004، المقدمة، دار الفكر للطباعة والنشر و التوزيع، الطبعة 1، لبنان، ص247.

[7]- عبد السلام جمعة، 2009، كتاب الرسائل في العصر العباسي الأول،مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، المجلد14، العدد9، ص106.

[8]- شوقي ضيف،1975، العصر العباسي الأول، دار المعارف، مصر، ط5، ص 527.

[9]- المرجع السابق، ص530.

[10]- محمد بن إسحاق ابن النديم، 1996، الفهرست، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، ص300.

[11]- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، 1948، البيان والّتبيين، دار الفكر للجميع، ط4 ، ج1 ، ص89.

[12]- فائد محمود محمد سلمان،2011 ،فن الرسائل عند سهل بن هارون وعمر بن مسعدة، أطروحة ماجستير ،جامعة النجاح الوطنية ، نابلس، فلسطين، ص6.

[13]- حسين بيوض، 1996، الرسائل السياسية في العصر العباسي الأول، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ص121 .

[14]- فائد محمود محمد سلمان، 2011 ، فن الرسائل عند سهل بن هارون وعمر بن مسعدة،ص18.

[15]- قحطان صالح الفلاح، 2011، الأدب و السياسة قراءة في رسالة "النمر و الثعلب لسهل بن هارون"،مجلة جامعة دمشق، المجلد 27، العدد1 / 2، ص88.

[16]- قحطان صالح الفلاح، القصة على لسان الحيوان "كتاب النمر و الثعلب لسهل بن هارون نموذجا" ، مجلة التراث العربي، العدد87، ص 263.

[17]- المرجع السابق، ص257

[18]-فائد محمود محمد سلمان، فن الرسائل عند سهل بن هارون وعمر بن مسعدة، ص 60.

[19]- محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر ، الطبعة الأول، بيروت.

[20]- المرجع السابق .

[21]- قحطان صالح الفلاح،2009 ، الأدب والسياسة ، مجلة جذور، المجلد 11، العدد 28، ص91

[22]- حسن بنيخلف، 2012 ، الرسالة في النثر العربي، http://www.diwanalarab.com/spip.php?article35417 -

[23]- شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، ص512.

[24]- قحطان صالح الفلاح،2003، الترسّلُ الفنيُّ في العصر العبّاسيّ الأوّل سهل بن هارون مترسّلاً، مجلة التراث العربي، العدد89، ص56.

[25]-كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، دار المعارف، ط4، ج2، القاهرة، ص108.

[26]- شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول، ص480.

[27]- محمد عبد المنعم خفاجي، 1992، الآداب العربية في العصر العباسي الأول، دار الجيل، ط1، بيروت، ص71.

[28]- زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، المكتبة التجارية الكبرى ، ط2، ج1 ، مصر، ص47.

[29]- ابن الأثير، 1939، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر، ص120.

[30]- منير سلطان، 1986، البديع تأصيل و تجديد، دار المعارف، الاسكندرية، ص56.

[31]- زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، المكتبة التجارية الكبرى، ط2، ج1، مصر، ص87.

[32]- حسين بيوض، الرسائل السياسية في العصر العباسي الأول، ص121.

(33)- فوزي سعد عيسى، 1991، الترسل في القرن الثالث، دار المعرفة الجامعية، مصر ، ص55.

(34) - البديع :تأصيل و تجديد-ص54.

قائمة المصادر والمراجع

1- حسين غالب، 1971، بيان العرب الجديد، دار الكتاب اللبناني، الطبعة 1 ، بيروت.

2- عبد العزيز عتيق، 1972، في النقد الأدبي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ،الطبعة 2، بيروت.

3- أبو العباس القلقشندي، 1922، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب المصرية، ج8 ، القاهرة.

4- بوصوري ناصر، فن الترسل في العهد الرستمي مقاربة أسلوبية، رسالة ماجستير ، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة .

5- عبد الرحمن ابن خلدون، 2004، المقدمة، دار الفكر للطباعة والنشر و التوزيع، الطبعة 1، لبنان.

6- عبد السلام جمعة، 2009، كتاب الرسائل في العصر العباسي الأول،مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، المجلد14، العدد9.

7- شوقي ضيف،1975، العصر العباسي الأول، دار المعارف، مصر، ط5.

8- محمد بن إسحاق ابن النديم، 1996، الفهرست، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1.

9- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، 1948، البيان والّتبيين، دار الفكر للجميع، ط4 ، ج1 .

10- فائد محمود محمد سلمان،2011 ،فن الرسائل عند سهل بن هارون وعمر بن مسعدة، أطروحة ماجستير ،جامعة النجاح الوطنية ، نابلس، فلسطين.

11- حسين بيوض، 1996، الرسائل السياسية في العصر العباسي الأول، منشورات وزارة الثقافة، دمشق.

12- قحطان صالح الفلاح، 2011، الأدب و السياسة قراءة في رسالة "النمر و الثعلب لسهل بن هارون"،مجلة جامعة دمشق، المجلد 27، العدد1 / 2.

13- قحطان صالح الفلاح، القصة على لسان الحيوان "كتاب النمر و الثعلب لسهل بن هارون نموذجا" ، مجلة التراث العربي، العدد87.

14- محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر ، الطبعة الأول، بيروت.

15- قحطان صالح الفلاح،2009 ، الأدب والسياسة ، مجلة جذور، المجلد 11، العدد 28.

16- حسن بنيخلف، 2012 ، الرسالة في النثر العربي، http://www.diwanalarab.com/spip.php?article35417 -

17- قحطان صالح الفلاح،2003، الترسّلُ الفنيُّ في العصر العبّاسيّ الأوّل سهل بن هارون مترسّلاً، مجلة التراث العربي، العدد89.

18- كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، دار المعارف، ط4، ج2، القاهرة.

19- محمد عبد المنعم خفاجي، 1992، الآداب العربية في العصر العباسي الأول، دار الجيل، ط1، بيروت.

20- زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، المكتبة التجارية الكبرى ، ط2، ج1 ، مصر.

21- ابن الأثير، 1939، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر.

22- منير سلطان، 1986، البديع تأصيل و تجديد، دار المعارف، الاسكندرية.

23- زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، المكتبة التجارية الكبرى، ط2، ج1، مصر.

24- فوزي سعد عيسى، 1991، الترسل في القرن الثالث، دار المعرفة الجامعية، مصر ، ص55.